

تأمين المدينة المنورة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

للواء الركن

محمد جمال الدين محفوظ

تمهيـــــد :

هاجـر الـرسـول ﷺ من مكـة إلى المدينة التي اختارها الله تعالى قاعدة للإسـلام ، ونقـطة انطلاق للدعوة والجهاد في سبيل الله ، وتجسيداً لتعاليم الإسـلام في توجيه حياة الأمـة ، وتنـظيم أركـان الـدولة في مختلف الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية .

وقد حرص الرسول ﷺ على تأمين قاعدة الإسلام بالمدينة ، وبناء القدرات الـدفـاعية للمسلمـين ، وجعـل ذلك على رأس أهدافه الاستراتيجية لتأمين الـدعـوة وإقـامة الدولة الإسلامية ، وقد سجل التاريخ الحقائق التالية التي برهنت على قوة قاعدة الإسلام وصلابتها :

(١) فقـد كانت المدينة قاعدة الانطلاق لغزوات الرسول ﷺ وسراياه والتي بلغت في جملتها قرابة السبعين من العمليات ، واستغرقت سبع سنوات حتى تحقق هدف تأمين الدعوة .

(٢) وحاربت المدينة أكثر من عدو في أكثر من جبهة ، فواجهت المشركين واليهود والروم ، وواجهت الجيوش المنظمة وغير المنظمة .

(٣) وتعرضت المدينة للغزو المباشر ، كما تعرضت للغدر من الداخل بينما كان أبناؤها يحاربون العدو خارجها (غزوة الخندق) .

(٤) وحارب المسلمون أغلب معاركهم عدواً أكثر منهم عدداً وعدة ، وحاربوا أحياناً وهم جرحى ومرضى .

(٥) لكن مع كل ذلك بقيت قاعدة الإسلام وطيدة صلبة ، حتى تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة العربية كلها ، وأَمِنَ الرسول ﷺ كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ، ويعلنون لله الإسلام .

وفي هذا البحث نتنـاول الأسس التي قامت عليهـا عملية تأمـين قاعدة الإسـلام في المـدينـة بعد الهجرة في مجالات الأمن المختلفة مع استخلاص الدروس المستفادة منها لكي ينتفع بها المسلمون في حاضرهم ومستقبلهم .

أولاً : المدينة دار إيمان وأمن :

* قبل أن يهاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، أمر أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » ، فخرجوا أرسالاً[1]، وانتظر حتى أذن له ربه بالخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

ولم تكن الهجرة فراراً من الأذى ، ولا هرباً من التنكيل ، ولا التماساً للرزق ، بل كانت امتثالاً لأمر الله ، وجهاداً في سبيل الله ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾[2] .

* وقد شاء الله سبحانه أن تشتمل دروس الهجرة على درس عظيم في تدابير الأمن والسرِّية التي كانت آية من آيات سلامة التفكير وحسن التدبير وإحكام التخطيط وبراعة التنفيذ ، مع الثقة -في الوقت نفسه- في معية الله وتأييده ونصره ، وهذا الدرس يرشدنا إلى أن النجاح في عمليات الأمن -وفي كل عمل من الأعمال- مرهون بالأخذ بالأسباب مع الثقة بمعية الله ونصره ، وأنه لابد أن يكون الأخذ بالأسباب «سابقاً» على التوكل على المسبب وهو الله سبحانه ، لأن الأسباب مخلوقة لله ، ويد الله ممدودة بها .

* فالله تعالى لم يشأ أن يجعل الهجرة « معجزة خالصة » ، وأن ينقل رسوله من مكة إلى المدينة في لحظات كما أسرى به من مكة إلى بيت المقدس وأعاده قبل أن يبرد فراشه ، ولكنه سبحانه -وهو القادر على كل شيء- أراد أن يجعلها هجرة بشرية بجهود وأسباب ووسائل بشرية ، ليعلم الأمة العناية بالأسباب ثم الاعتماد على الله القادر. .

* ورسول الله ﷺ - وهو يعلم أنه يهاجر في سبيل الله ويثق بأن الله ناصره

وحافظه : « لم يقصر » في الأخذ بالأسباب ، ولم يهمل التدبير واتخاذ الحيطة والحذر وكتمان السر ، فخطط لكل شيء بحساب دقيق .

* وبذلك اجتمعت للهجرة أسباب النجاح والنص من ناحيتين :

الأولى : أساسها « الأسباب البشرية » : إخفاء موعد الهجرة - خداع المراقبين للبيت بنوم علي رضي الله عنه في فراش النبي ﷺ -اختيار دليل مشرك للطريق- اتخاذ طريق غير متوقع- اللجوء إلى غار ثور والبقاء فيه ثلاثة أيام لتحقيق المزيد من تضليل قريش والضغط النفسي عليها - التعرف المستمر على أخبار قريش عن طريق عبد الله بن أبي بكر - الحرص على إزالة آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر بعد زيارته للغار بمرور غنم أبي بكر فوقها . . . الخ .

* ولقد كان استئجار الرسول ﷺ لعبد الله بن أريقط ليكون الدليل في الرحلة ولإعداد الرواحل رغم أنه لم يكن مسلماً ، غاية في التمويه على قريش ، فالذي يتصوره الإنسان أن يتجه النظر إلى صحابي محل ثقة النبي ﷺ ، أما وأن يكون المسئول عن الرواحل والدليل في الرحلة ، والشريك في هذا السر الكبير الذي أخفاه الرسول ﷺ عن المسلمين غير مسلم ، فهذا آخر ما كان يمكن أن يرد على ذهن قريش . . . حتى أمر الاتصال بعبد الله بن أريقط في شأن الرواحل خضع لتفكير دقيق ، فإذا ما اتصل به عبد الله بن أبي بكر ، فقد يثير ذلك انتباه قريش وريبتها ، وكذلك إذا حدثته أسماء ، ولكن إذا ما اتصل به عامر بن فهيرة ، وهو راع مثله ، ومن طبيعة الراعي أن يتحرك ليقابل راعياً ، فليس في الأمر أية ريبة .

والثانية : أساسها « العناية الإلهية والمدد الإلهي » ، ومن ذلك أن ينسج العنكبوت خيوطه على فم الغار ، وأن تبيض الحمامة بجوار نسيج العنكبوت ، وقد وصل الكفار إلى فم الغار حتى لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأى الرسول الكريم ﷺ وصاحبه ، ومنه أيضاً أن تتعثر فرس سراقة بن جعشم الذي لحق بهما أملاً في مائة ناقة جعلتها قريش لمن يأتي بمحمد ﷺ حياً أو ميتاً ، وأن يرى

من علامات حفظ الله ما يُحوِّل اتجاهاته من عدو له ، أبى حارس يرد عنه من يريد اللحاق به ، ولقد شاءت عناية الله أن يكون عبد الله بن أريقط « صادقاً وأميناً » على سر الهجرة ، وكان من الممكن أن يفشيه ليفوز بالنوق المائة ، أو أن يضلل الرسول ﷺ في الشعاب ليعود به إلى حيث خرج . . . وصدق الله العظيم : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني أثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم »[٣] .

* ويعلمنا درس الهجرة في مجال الأمن أمراً هاماً يتعلق «بتداول الأسرار» وهو أن من لديه سر من الأسرار يجب ألا يبوح به إلا للمختص أو من يهمه الأمر ، وأن يكون ذلك بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب ، فليس كل ما يُعرف يُقال ، ولا كل ما يقال حضر أهله ، ولا كل من حضر أهله جاء أوانه ، كما يعلمنا درس الهجرة أهمية «التنسيق» بين القائمين بتنفيذ الخطط ، فالرسول ﷺ قسم العمل بين كل من ساهموا في عملية الهجرة : علي بن أبي طالب له دور ، وعبد الله بن أبي بكر وأسماء لهما مهمة ، وكذلك عامر بن فهيرة وعبد الله بن أريقط ، وبالإضافة إلى « تحديد دور » كل منهم كان هناك تنسيق بالنسبة «للزمان والمكان» ، وبذلك جرت كل الأدوار في «تكامل وانسجام» .

* ولو أن باحثاً أراد الوقوف على أسباب العجز أو الفشل في تحقيق الأهداف في بلادنا ، لوجد على رأس هذه الأسباب غيبة عنصر التنسيق أو ضعفه ، وكم من وقت يذهب سدى بسبب عدم التنسيق ، وكم من «تضارب» في القرارات ، أو «ازدواج في الجهود» يحدث بسبب غيبة التنسيق .

حرمة المدينة وحدود حرمها :

وقد حرم الرسول ﷺ ودعا لها وبين حدود حرمها :

- عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها ، وحرَّمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها مُدِّها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة »(٤) .
- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لما أشرف على المدينة وهو عائد من غزوة خيبر- : « اللهم إني أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم به إبراهيم مكة ، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم »(٥) .
- وعن عاصم قال : قلت لأنس أحرم رسول الله ﷺ المدينة ؟ قال : نعم ما بين كذا إلى كذا ، لا يُقطع شجرها ، من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . . قال عاصم : فأخبرني موسى بن أنس أنه قال : أو آوى محدثا(٦) .
- وعن علي رضي الله عنه قال : خطب على منبر من آجُرٍّ وعليه سيف فيه صحيفة معلقة ، فقال : والله ما عندنا من كتاب يُقرأ إلا كتاب الله ، وما في هذه الصحيفة . فنشرها فإذا فيها : أسنان الأبل ، وإذا فيها : « المدينة حرم من عَيْرٍ إلى كذا ، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » . وإذا فيه : « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » . وإذا فيها : « من والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً »(٧) .
- حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه كان يقول : لو رأيت الظِّباء ترتع ما ذَعَرتُها . قال رسول الله ﷺ : « ما بين لا بيتها حرام »(٨) .
- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قالت سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء »(٩) .
- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الإيمان يأرِزُ إلى المدينة ، كما تأزر الحية إلى مجرها »(١٠) .

ثانياً : بنـاء المسـجد :

* لما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة وهو يحمل رسالة الإسلام ، جعل مهر هذه الرسالة ومحور انتشارها يبدأ من المسجد ، وقد بدأ عليه الصلاة والسلام عمله في المدينة ببنا ، مسجده العظيم ، وكان يعمل فيه بيده ويحمل أحجاره بنفسه ، فكان هذا المسجد مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى ودار الدولة الإسلامية الكبرى ، وكان دارا للعبادة ومؤسسة للشورى وتلقى العلوم ، وتعلم قواعد العقائد وفرائض العبادات ، ومكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وطرق المعاملات ، ويقول الحديث القدسي الذي يرويه الرسول ﷺ عن ربه : « إن بيوتي في أرضى المساجد وإن زوارى فيها هم عمارها فطوبي لمن تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على المزور أن يكرم زائره » . ويقول الرسول ﷺ : « المسجد بيت كل تقي ، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة »[١١] .

ويقول أيضاً : « من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة »[١٢] .

* وكان للمسجد دوره الكبير في أمن المسلمين :

(١) فقد كان المسجد موقعاً يتجمع فيه المجاهدون وينطلقون منه إلى ميادين القتال .

(٢) ومن فوق منبره أعلن الرسول القائد ﷺ للمسلمين أن الرمى جماع القوة الشاملة ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر يوماً فقرأ قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . . ﴾ ثم قال : « ألا إن القوة الرمى ، إن القوة الرمى ، إن القوة الرمى »[١٣] .

(٣) وأقر الرسول ﷺ اتخاذ المسجد ميداناً للتدريب على فنون القتال واستخدام الأسلحة ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « بينا الحبشة يلعبون عند النبي ﷺ بحرابهم ، دخل عمر فأهوى إلى الحصباء

فحصبهم فقال : دعهم يا عمر »[١٤] .

(٤) كما أقر عليه الصلاة والسلام أن تعد في المسجد حملات الحرب النفسية الموجهة إلى الأعداء ، فقد كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يلقي شعراً في هجاء المشركين في المسجد أمام الرسول ﷺ ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : بين يدي رسول الله ومن حرم الله تقول الشعر ؟ ، فقال الرسول ﷺ : « خل عنه يا عمر ، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل »[١٥] .

(٥) وكان المسجد مكاناً لإسعاف الجرحى والمصابين في المعارك وخدمتهم ، فإنه لما أصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم في غزوة الخندق قال الرسول ﷺ لقومه : « اجعلوه في خَيْمة رُفَيدة حتى أعوده من قريب.. وكانت لها خيمة في المسجد تداوي فيها الجرحى ، قال ابن إسحق : « وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم (من قبيلة أسلم) يقال لها رفيدة في مسجده ، كانت تداوي الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضَيْعَة من المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب ، وكان رسول الله ﷺ يمر به فيقول : كيف أمسيت وكيف أصبحت ؟ فيخبره[١٦] .

* هذه الأمثلة وغيرها تكشف عن الدور الكبير للمسجد ، وأنه موضوع لأمن جماعة المسلمين ، فأي عمل من الأعمال يجمع بين منفعة الدين وأهله ، فهو جائز فيه ، مباح بين جدرانه ، ونذكر فيما يلي بعض أحاديث الرسول ﷺ عن مسجده العظيم ومسجد قباء وفضل الصلاة فيهما :

- عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ﷺ ، ومسجد الأقصى »[١٧] .

- وعنه أيضاً قال ﷺ : « صلاةٌ في مسجدي خير من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام »(١٨).
- وعنه أيضاً قال ﷺ : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على حوضي »(١٩).
- وقال ﷺ : « من صلى في مسجدي أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتبت له براءة من النار وبراءة من العذاب ، وبرىء من النفاق »(٢٠).
- وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال : قال رسول الله ﷺ : « من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه كان له كأجر عمرة »(٢١).
- وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : « كان النبي ﷺ يأتي قباء راكباً وماشياً »(٢٢).

ثالثاً : قوة المجتمع الاسلامي واستقراره :

* كان مجتمع المدينة نموذجاً لمنهج الإسلام في بناء المجتمع الإنساني الفاضل الذي ينعم بالأمن والاستقرار والسلام الاجتماعي ، ونذكر فيما يلي بعض الصفات التي اتصف بها المسلمون في مجتمع المدينة :

(١) فقد قاموا بواجبهم نحو ربهم ومجتمعهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾(٢٣).

(٢) ومجتمعهم رحمة الأخوة ، وسماحة التآلف ، وكرم الإيثار ، قال تعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ

مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[٢٤].

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٢٥].

أخرج ابن المنذر عن يزيد الأصم أن الأنصار قالوا : يا رسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين . قال : لا ، ولكن تكفونهم المؤنة وتقاسمونهم الثمرة والأرض أرضكم . قالوا : رضينا . فأنزل الله تعالى : ﴿ والذين تبوأوا الدار. . . ﴾ الآية[٢٦].

وقال تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢٧]. قال القرطبي:

أي جمع بين قلوب الأوس والخزرج لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها ، وكانوا أشد خلق الله حمية فألف الله بالإيمان بين قلوبهم . . وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٢٨].

(٣) وباعوا الله أنفسهم وأموالهم صادقين مطمئنين لقاء ما أعطاهم من جنته ومغفرته ورضوانه :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[٣٠] .

عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر عن بدر ، فكبر عليه فقال : أول مشهد قد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع ، فشهد يوم أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . . ﴾ إلى آخرها[٣١] .

وقال جل شأنه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[٣٢] أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : أقبل صهيب رضي الله عنه مهاجراً إلى رسول الله ﷺ فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته ، وانتثل ما في كنانته (أي أخرج السهام من جعبتها) ثم قال : يا معشر قريش . . لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً ، وايم الله لا تصلون إلى حتى أرمى كل سهم معي في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقى في يدي منه شيء ، ثم افعلوا ما شئتم . . وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وخليتم سبيلي . قالوا :

نعم. . . فلما قدم المدينة على النبي ﷺ قال : « ربح البيع أبا يحيى (مرتين) » (يعني صهيبا) ونزلت الآية الكريمة : ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله . . . ﴾ الآية[٣٣].

وقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[٣٤]

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أمر رسول الله ﷺ أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه (أي جماعة) فيهم عبد الله بن معقل المزني رضي الله عنه . فقال : يا رسول الله احملنا . . فقال : « والله لا أجد ما أحملكم عليه » . فولوا ولهم بكاء ، وعز عليهم أن يحبسوا ولا يجدوا نفقة ولا محملا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا على الذين إذا ما آتوك لتحملهم . . . الآية﴾[٣٥].

(٤) وملك حب الله قلوبهم فأحبوا من أحبه وعادوا من عاداه ولو كان أقرب الناس إليهم . . قال تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٣٦] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال : نزلت هذه الآية في أبي عبيدة ابن الجراح

حين قتل أباه يوم بدر[٣٧] : « ولو كانوا آباءهم » ، وفي الصدِّيق هم بقتل ابنه عبد الرحمن يوم بدر : « أو أبناءهم » ، وفي مصعب بن عمير قتل أخـاه عبيد بن عمير يومئذ : « أو إخوانهم » ، وفي عمر قتل قريباً له يومئذ ، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ : « أو عشيرتهم » .

(٥) وحرصوا على إبراز الشخصية المستقلة لمجتمع المسلمين . . فقد كان أهل المـدينـة حين دخلها الإسلام يحتفلون بعيدين من أعياد الطبيعة فمنع الرسول ﷺ المسلمين من الاستمرار في الاحتفال بهذين العيدين وقال لهم : « إن الله -تبارك وتعالى- قد أبدلكم بهما خيراً منهما : يوم الفطر ويوم الأضحى »[٣٨] . ثم وضع للمسلمين قاعدة اجتماعية كلية وتحذيراً عاماً لهم من التشبه بغيرهم والذوبان فيهم فقال : « من تشبه بقوم فهو منهم » ، وقـد حرص عليه الصـلاة والسـلام -وهو يكوّن أول مجتمع إسلامي في المدينة- على إبراز الشخصية المستقلة للمسلمين ، ولم يتركهم يذوبون في المحيط المشرك أو اليهودي ومن ذلك أنه ﷺ قال : « نظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود »[٣٩] وفي رواية أخرى : « نظفوا بيوتكم ولا تشبهـوا باليهـود التي تجمـع الأكبـاء (القـاذورات) في دورهـا »[٤٠] . . وينطوي ذلك على درس نتعلم منه أن التشبه بالغير في بعض مظاهره ، قد يجر المسلم إلى محاكاته في أفكاره وأفعاله ، فيصبح صورة مكررة له ، ويهمل حينئذ مظاهره وآدابه وأفكاره وتقاليده الخاصة به ، ويفقد بذلك معـالم شخصيتـه المميزة له ، ويصبـح المسلم حينئـذ إنسـانـاً تافـه الشخصية ، لا وزن له في المجتمع المسلم ولا تقدير ، ولا يحترمه حتى الذين يقلدهم ويغني فيهم بعد أن أهان نفسه وألغى وجوده وصدق قول الشاعر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هو انـا بها كانت على النـاس أهونا

رابعاً : الأمن السياسي :

* كان مبدأ الشورى هو دعامة البناء السياسي لمجتمع المدينة ، والنظام المطبق لحصانة الفرد وصلابة المجتمع واستقراره ، فليس هناك بين يدي الله فرق بين الراعي والرعية ، ولا بين الكبير والصغير إلا بدعوة العقيدة والإيمان بها إيماناً لا يرقى إليها الشك ، والعمل الصالح ، فالمسلمون أمة واحدة يشد بعضهم إزر بعض فيما يعود عليهم بالخير ، ولكل منهم رأيه في سياسة أمره وفيما يساس به ، فليس من الإسلام الاستئثار بالرأي ، ولكنه شورى بين جميع العاملين .

* ولقد أقر الإسلام ما كان عليه أهل المدينة من التشاور فيما بينهم ، فمدح هذا السبيل ، ونادى بالشورى ورفع من شأنها ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(٤١) .

فقرن الله بين الصلاة والشورى ، وجعلها بذلك أصلاً قوياً من أصول قيام المجتمع المسلم في الإسلام ، وبتحقيقها وتدعيمها تتحقق العدالة في شتى صورها وألوانها بين الناس جميعاً ، بل لقد أمر بها رسوله ﷺ ، قال سبحانه : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٤٢) .

ولم تكن الشورى وأمر الرسول ﷺ بها -وهو الذي يتنزل عليه الوحي- إلا تعليما للأمة وإعلاناً بأن في تحقيق مبدأ الشورى من الفضل والخير ما يؤمن معه العثار ، ويحفظ الأمة من الزلل ، ويحفظ عليها أمنها واستقرارها ، كما أنها شيمة العقلاء ومنهج الحكماء . قال أبوهريرة رضي الله عنه : « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ »(٤٣) .

* ونستخلص من هدى الرسول ﷺ في الشورى المبادىء التالية :

(١) الرأي أمانة ومسئولية ، وعلى من يستشار أن يقول رأيه بصدق وإخلاص ، قال عليه الصلاة والسلام : « المستشار مؤتمن »[٤٤]، وقال : « إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه »[٤٥]، ويحذر الرسول ﷺ من الامتناع عن إبداء الرأي ويعده من شهادة الزور حيث قال عليه الصلاة والسلام : « من كتم شهادة إذا دعي إليها كان كمن شهد الزور »[٤٦]، وقد أمر الإسلام باجتناب قول الزور وقرنه بعبادة الأوثان حيث قال تعالى : ﴿ . . فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾[٤٧].

(٢) في الشورى خير مصلحة ، حيث قال ﷺ : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار ، ولا عال من اقتصد »[٤٨].

(٣) القيادة الحكيمة هي التي تستفيد من خبرة العلماء والمتخصصين والخبراء وغيرهم من « أهل الرأي » الذين يصدر رأيهم عن سعة في المعرفة وعمق في التجربة والخبرة ، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سئل ﷺ عن العزم ، فقال : « شاور أهل الرأي »[٤٩].

(٤) الأخذ بالمشورة الصالحة واجب ، مهما كان مركز صاحبها ، فقد أخذ الرسول ﷺ بمشورة الحباب بن المنذر في غزوة بدر الكبرى ونقل الجيش إلى حيث أشار وبذلك أصبح في وضع أفضل بسيطرته على مياه بدر ، كما أخذ عليه الصلاة والسلام بمشورة سلمان الفارسي بحفر الخندق حول المدينة في غزوة الخندق فكان ذلك خير نظام للدفاع عنها ، وكان الرسول ﷺ يكرم أصحاب الرأي ويشيد بهم ، ومن ذلك أنه قال للحباب بن المنذر بعد أن أشار بنقل الجيش إلى موضع آخر : « أشرتَ بالرأي »[٥٠]، وقال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما : « لو اجتمعتا في مشورة لما خالفتكما »[٥١].

* لا محل للتردد أو المناقشة بعد الأخذ بالمشورة واتخاذ القرار ، لأن من شأن ذلك تعطيل تنفيذ الخطط والفشل في تحقيق الأهداف ، وذلك بعض ما يفهم من قول الله تعالى : ﴿ . . . فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٥٢) .

وقد حدث في غزوة أحد بعد أن استقر الرأي على لقاء قريش خارج المدينة وأخذ المسلمون في الاستعداد للخروج أن شعر القوم الذين دعوا إلى الخروج أنهم استكرهوا الرسول ﷺ على اتخاذ القرار بالخروج ، فذهبوا إلى بيته وأظهروا الرغبة في النزول على رأيه بالبقاء في المدينة ، إلا أن النبي ﷺ حسم الموقف وقطع هذا التردد والاضطراب فقال : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمنه (درعه) أن يصفها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه »(٥٣) هذا وإن تنفيذ ما استقر عليه الرأي ينطوي على معان ذات مغزى ، ففيه -فضلاً عن تكريم أصحاب الرأي- حفز لكل فرد لأن يتقدم ويشارك بالرأي مما يعين على أن تأتي الخطط على أفضل وجه ممكن ، أما عدم تنفيذ ما استقر عليه الرأي ، فله آثار سلبية وضارة ، ففضلاً عن أنه يصيب بالإحباط أصحاب الرأي الذي حظى بموافقة الجماعة أو أغلبيتها ، فإنه يصيب الأفراد جميعاً بروح السلبية ويقتل فيهم الدوافع النفسية للمشاركة الإيجابية وإبداء الرأي .

(٦) مهما كانت شخصية القائد ، فإن من الخطر أن يترك وحده للتصرف التام من جميع شئون الجماعة ، ففي الانفراد بالسلطة معنى التحكم الفردي والتسلط ، كما أن من المحتمل أن ينحرف القائد عن أهداف الجماعة تحت تأثير ظروفه النفسية الخاصة ، كما أن الاعتماد التام على القائد الفرد يعرض الجماعة إلى هزات عنيفة عند غياب هذا القائد أو تغييره مما يؤثر في استمرار خطة الجماعة .

خامساً : الأمــن الاقتصــادي :

* وضع الرسول ﷺ أساس النظام الاقتصادي للمجتمع المسلم مستضيئاً بما أنـزل الله عليه من إرشـاد وهـداية ، وهـو نظام كفيل بتحقيق العـدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع وهي ركن هام من أركان الأمن. . فجعل للفقراء حقاً معلوماً في أموال الأغنياء ، وجعل الزكاة ركناً من أركان الإسلام لا يقوم الـدين بغـيره ، وأوجب أداءهـا على كل مسلم مستـطيع ، وهو من يملك النصاب المعروف ، وتوعد من يمتنع عن أدائها بالعذاب الأليم حيث يقول الله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[٥٤].

* والإنفـاق المـأمور به ليس مقصوراً على إخراج الزكاة ، بل يمتد إلى تحريك المال وإنفاقه لتنميته والصرف منه على وجوه الخير وما ينفع الناس وأن يكون المال أداة تنمية وتقدم للمسلمين .

* وجعل الإسلام للعمل والإنتاج دوراً حيوياً في البناء الاقتصادي وحث المسلمين على الإخلاص فيه وإتقانه حيث يقول الله تعالى :

- « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً »[٥٥].
- « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون »[٥٦].

وقال الرسول ﷺ :

- « من أمسى كالا من عمل يده ، أمسى مغفوراً له »[٥٧].
- « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »[٥٨].

* ووجه الإسلام إلى ضبط الاستهلاك ومحاربة الإسراف لكي يتوفر للأمة فائض في الإنتاج يمكنها من مواجهة الأزمات عامة ، وما يحدث في ظروف الحرب من تعطل لأدوات الانتاج أو الحصار الاقتصادي بخاصة . يقول الله تعالى :

- « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا »[٥٩] .
- « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[٦٠] وقال الرسول ﷺ :
- « القصدَ القصدَ تبلغوا »[٦١] أي عليكم بالتوسط في الأمور تصلوا إلى غاياتكم .
- « إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السئوال ، وإضاعة المال »[٦٢] .

* ولقد سبقت حكمة الله جل شأنه أن تكون القوة الاقتصادية وثيقة الصلة بالقوة التي أمر بإعدادها لإرهاب الأعداء وردعهم حيث قال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[٦٣] كما أن الله سبحانه قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في أكثر الآيات القرآنية التي تحض على الجهاد ، في مثل قوله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[٦٤] ، وقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٦٥] .

وقال الرسول ﷺ « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم »(٦٦) وقال حين سئل عن أفضل الناس : « مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله »(٦٧) .

وبـذلـك تؤدي القـوة الاقتصـادية دورها في أمن المسلمين وبناء قدراتهم الـدفاعية لأن المال هو « عصب الحرب » ، فإذا رأى العدو أنه سيواجه من المسلمين قوة حربية تساندها قوة اقتصادية متينة وقادرة على تلبية احتياجات المعـركـة مهما طال أمدها ، فسوف لا يستهين بالمسلمين ولا يعلق أمله على التغلب عليهم .

* ويعلمنا الرسول ﷺ درساً عظيماً في مجال الأمن الاقتصادي هو ضرورة « تحقيق الاكتفاء الذاتي » لأن اعتماد الأمة على غيرها يضعها في مهب تقلبات المصالح والأهواء والاحتكارات ، ولا يحقق لها ميزة التفوق أو الاستقلال ، فقـد عنى عليه الصـلاة والسـلام بتحـرير اقتصاديات المدينة من التبعية ، وجعلها خالصة للمسلمين لتحقيق الاستقلال والاكتفاء الذاتي ، ومن ذلك تحرير أرض المدينة من طغيان يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، ومنه أيضاً أنه كانت بئر رومة ركية (أي ماؤها قليل) ليهودي يبيع المسلمين ماءها ، فقال الرسول ﷺ : « من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين ، يضرب بدلوه في دلائهم وله بها شرب في الجنة ؟ فأتى -عثمان رضـي الله عنه- اليهودي فسـاومـه بها فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمـين ، فقـال له عثمان : إن شئت جعلت على نصيبي قرين (مكانين للسقيا) ، فجعل المسلمون إذا كان يوم عثمان استقوا ليومين ، فلما رأى اليهود ذلك قال : أفسدت على ركيتي فاشتر النصف الآخر ، فاشتراه منه بثمانية آلاف درهم ، وصارت كلها للمسلمين .

* وعنى الرسول ﷺ « بالأمن الغذائي » وحذر من كل ما يؤذى المسلمين

في أقواتهم ومن ذلك ما يلي :

(١) المغالاة في الأسعار ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : « من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم ، كان حقاً على الله أن يقذفه في جهنم ، رأسه أسفله (أي منكساً)[٦٨].

(٢) احتكار الأقوات ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون »[٦٩]، وقال : « من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برىء من الله وبرىء الله منه ، وأيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى »[٧٠].

(٣) وقد كرم عليه الصلاة والسلام التجار الأمناء فقال : « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء »[٧١].

وقد وصف الله التجار الأمناء الذين يقومون بواجبهم نحو الله والناس ولا تشغلهم أعمالهم عن الله فقال جل شأنه : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَـٰرُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[٧٢].

سادساً : وحدة المدينة وتماسك الجبهة الداخلية :

* لقد نشأت -بهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة- الدولة الإسلامية ، وظهر عنصر السلطة وعنصر الدولة متمثلاً في شخصه الكريم باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين التي اتخذت المدينة مقراً لها ، وبتنظيم أركان الدولة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وعسكرياً ، وقد قام الرسول ﷺ بعمل سياسي واستراتيجي بارع كان له أثر كبير في تأمين المدينة ، إذ حقق وحدة المدينة وتماسك الجبهة الداخلية ، بجمع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وإيجاد رابطة قوية بينهم ،

وبتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكان المدينة من المسلمين والمشركين واليهود :

(١) فعمد إلى ربط المهاجرين بالأنصار أهل المدينة الأصليين ، فآخى بينهما بصلة الأخوة ليصبحا فئة واحدة مترابطة وملتحمة وليكون الجميع متعاونين على أسباب العيش ، ويداً واحدة تعمل لهدف واحد .

(٢) وعمد إلى توحيد صف الأنصار أنفسهم حيث أنهم كانوا أوساد خزرج ، وكانت بين الفئتين خلافات مستمرة وعداوات سابقة ، فأراد الرسول ﷺ -وقد جمع بينهم الإسلام- أن يشكلوا قوة واحدة متضامنة ، وأن يزول ما بينهم من خلافات وعداوات ، وأن يقضي على كل شبهة قد تثير العداوة القديمة بينهم .

(٣) وعقد معاهدة بين المسلمين من جهة وبين المشركين واليهود من أهل المدينة من جهة أخرى تقرر فيها ما يلي[٧٣] .

من الناحية الاجتماعية والاقتصادية :

١ - جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة .
٢ - التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية .
٣ - تقرير حرية الاعتقاد ، فلكل دينه الذي هو عليه .
٤ - فتح الطريق للراغبين من اليهود في دخول الإسلام وجعلهم يتمتعون بجميع حقوق المسلمين .
٥ - الجار له حرمة جاره .
٦ - سكان المدينة آمنون فيها من القتل والاغتيال والغدر .
٧ - المجرم ينال عقابه على جرمه دون أن يحول دون تنفيذ العقاب عليه حائل .
٨ - ليس هناك ما يفرق بين الصفوف من دين الله أو أغراض أخرى .

٩ - الفقير يجد معاونة من الغني في معيشته وفك ديونه وتحمل فدائه وديته .
١٠ - حرمة المدينة ، أي يحرم بها ما يحرم بمكة .

ومن الناحية العسكرية :

١ - قيادة الرسول ﷺ لكافة سكان المدينة مسلمين ومشركين ويهود ، فإليه يرجع الأمر كله ، وله أن يحكم في كل اختلاف يقع بين السكان ، وبذلك أصبح عليه الصلاة والسلام هو القائد العام في المدينة .
٢ - تعاون أهل المدينة جميعاً في رد كل اعتداء يقع عليها من الخارج .
٣ - في حالة الحرب لرد العدوان عن المدينة ، تتولى كل طائفة الإنفاق على نفسها « على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة » .

سابعاً : تأمين الجبهة الداخلية :

* وحرص الرسول ﷺ على تأمين الجبهة الداخلية والقضاء على محاولات بث الفرقة وإحداث الفتنة وتفتيت الوحدة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه »(٧٤) ومن أمثلة ذلك ما يلي :

(١) أخرج ابن إسحاق وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : مرشاس بن قيس -وكان يهودياً- على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون ، فغاظه ما رأى من تآلفهم بعد العداوة ، فأمر شاباً من يهود أن يجلس بينهم فيذكرهم يوم بُعاث ففعل ، فتنازعوا وتفاخروا حتى وثب رجلان : أوس بن قيظى من الأوس ، وجعار بن صخر من الخزرج فتقاولا (تبادلا التفاخر) وغضب الفريقان وتواثبوا للقتال ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فجاء حتى وعظهم وأصلح بينهم فسمعوا وأطاعوا الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾[٧٥].

(٢) وكان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أجير يقود فرسه في غزوة بني المصطلق في شعبان عام ٥هـ اسمه جَهجاه ، فازدحم بعد انتهاء المعركة مع أحد رجال الخزرج يسمى سِنان بن وبر الجهني على الماء فالتبست دلو جهجاه ودلو سنان ، وتنازعا ، فضرب جهجاه سنانا فسال الدم ، فنادى سنان : يا للأنصار ، ونادى جهجاه : يا للمهاجرين ، فأقبل جمع من الفريقين وشهروا السلاح حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة . . فخرج رسول الله ﷺ فقال : « دعوها فإنها منتنة » ، وقرر الرحيل فوراً قبل أن يستفحل الأمر ، وخاصة بعد أن انتهز كبير المنافقين عبد الله بن أُبيّ الفرصة -وكان قد خرج مع المنافقين في هذه الغزوة متظاهراً بالإسلام- ليشعلها فتنة عمياء بين المهاجرين والأنصار ، وقد وصف الرسول ﷺ ما حدث بأنه من دعوى الجاهلية ، وأمر المسلمين بأن يدعوها « فإنها منتنة » ذلك أن الله تعالى قد جعل المؤمنين إخوة ، وحزبا واحداً ، وإنما ينبغي أن تكون الدعوة : « يا للمسلمين » عند مواجهة عدو المسلمين . . ثم إن وصف دعوى الجاهلية بأنها منتنة دليل على قبحها الشديد وضررها وسوء عاقبتها . . وقد اتخذ عليه الصلاة والسلام في ذلك الموقف قراراً بالغ الحكمة لإزالة آثار ما حدث ، إذ أمر بالرحيل فوراً للعودة إلى المدينة وبأسلوب في السير كفيل بأن يُنسي الناس أمر الفتنة من شدة التعب ، فقد انطلق بالناس طيلة يومهم حتى أمسوا ، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا ، وصدْر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس ، فلما نزل الناس لم يلبثوا حين مسَّت جنوبهم الأرض أن ناموا من فرط التعب[٧٦].

(٣) وقام جماعة من المنافقين ببناء مسجد بذى أوان ، وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، في هذا المسجد كان المنافقون يحاولون أن يحرفوا

كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضِراراً وكفراً ، وطلبت هذه الجماعة إلى النبي ﷺ -وهو يتجهز لغزوة تبوك- أن يفتتح المسجد بالصلاة فيه ، وقالوا : يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه . . . فاستمهلهم حتى يعود ، فلما عاد وعرف أمر المسجد وحقيقة ما قُصد إليه من إقامته ، دعا اثنين من المسلمين فقال : «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحَرِّقاه ، ففعلا[77] . . وقد قال الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[78] .

ثامناً : الاستخبارات القوية والأمن الوقائي :

* وضع الرسول القائد ﷺ في اعتباره منذ وصوله إلى المدينة أن قريشاً سوف تسعى بكل قوتها للقضاء على الإسلام في موطنه الجديد بعد أن فشلت في القضاء عليه في مكة ، من أجل ذلك اتخذ كل التدابير الضرورية لوقاية المدينة من المباغتة ، وعدَّ ذلك من دعامات بناء القدرات الدفاعية . ومن هذه التدابير نذكر ما يلي :

العيــون والأرصــاد :

فكان للرسول ﷺ عيون وأرصاد (رجال استخبارات) في داخل شبه الجزيرة وفي خارجها :

* ففي المدينة : كانت عيونه وأرصاده يطلعون على كل صغيرة وكبيرة تضر بالمصلحة العامة للمسلمين في السلم والحرب على حد سواء ، ومنهم -على

سبيل المثال- حذيفة بن اليمان العبسي الذي اختاره ليأتيه بأخبار المنافقين ونواياهم ، وكان رضي الله عنه خبيراً بأمرهم حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات ميت يسأل عن حذيفة فإن حضر الصلاة عليه صلى عمر ، وإن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضر عمر[٧٩].

* وفي مكة : (مركز قريش الرئيس) وهي تبعد عن المدينة أكثر من ٤٠٠ كيلومتر كانت مصادر استخباراته متعددة ومنها ما يلي :

(١) العباس عم النبي ﷺ ، ومن أمثلة نشاطه أنه قبل غزوة أحد بعث إلى الرسول ﷺ برسالة يخبره فيها عن وقت خروج قريش لقتاله وعن عدد قواتها ، وقد أسرع حامل الرسالة بإيصال تلك الرسالة إلى الرسول ﷺ حتى إنه قطع المسافة بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام ، كما فعل مثل ذلك قبل غزوة الخندق ، حيث أعطى المسلمين إنذار مبكراً بنوايا قريش ، مما مكنهم من حفر الخندق للدفاع عن المدينة حتى إذا رآه المشركون كان مفاجأة لهم حتى قال أبوسفيان : « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها »[٨٠].

(٢) بشر بن سفيان العتكي ، ومن أمثلة نشاطه أنه أخبر الرسول ﷺ بموقف المشركين منه في عام الحديبية وأنهم قرروا منعه من دخول مكة ، فقد قدم عليه لما توجه يريد مكة فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إني لأطوف بالبيت في ليلة كذا -وسمى الليلة التي أنشئوا لها السفر- وقريش في أنديتها إذ صرخ صارخ في أعلى أبي قبيس بصوت أسمَعَ قاصيهم ودانيهم يقول :

سيروا فصاحبكم قد سار نحوكم   سيروا إليه وكونوا معشراً كراماً

فذكر أبياتاً ، فارتجت مكة ، واجتمعوا عند الكعبة فتخالفوا وتعاقدوا ألا تدخلها عليهم . . . فقال النبي ﷺ : « هذا شيطان الأصنام يوشك أن يقتله الله » . ثم ذكر إرساله إلى مكة يتجسس أخبارهم وذكر بقية القصة[٨١].

(٣) قبيلة خُزاعة : وفي مكة أيضاً كانت خزاعة ، قال الزُّهْري : « وكانت خزاعة عَيْبَةَ نُصْح رسول الله ﷺ ، مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة »[٨٢] . (وعيبة نصح الرسول أي خاصته وأصحاب سره) وقد كان بين عبد المطلب (جد الرسول ﷺ) وخزاعة حلف قديم ، قال عمرو بن سالم بن حصيرة الخزاعي :

لا هُمَّ أني ناشد محمدا حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدا[٨٣]

ومن أمثلة نشاط خزاعة إبلاغها الرسول ﷺ بخبر تهيؤ قريش للخروج لغزو المدينة في غزوة الخندق ، وقد أسرع ركبهم فبلغ المدينة في أربع ليال[٨٤] ، ومنها أيضا ما قام به مَعْبَد بن أبي معبد الخزاعي بعد انصراف قريش من غزوة أحد -وهو يومئذ مشرك- فقد استطاع أن يُثني قريشاً عن العودة لاستئصال المسلمين[٨٥] .

(٤) وفي القبائل الأخرى : كانت للرسول ﷺ عيون وأرصاد ، ومن أمثلة ذلك عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي في هوازن ، قال ابن إسحق : « ولما سمع بهم (أي هوازن) نبي الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم عِلْمَهم ثم يأتيه بخبرهم ، فانطلق ابن أبي حدرد ، فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ ، وسمع من مالك (مالك بن عوف) وأمْر هوازن ما هُم عليه ثم أقبل حتى أتى رسولَ الله ﷺ فأخبره الخبر »[٨٦] .

وفي غزوة الخندق بعث النبي ﷺ الزبير بن العوام ليأتيه بخبر يهود بني قريظة ، وقد روى عبد الله بن الزبير قال : كنت يوم الأحزاب جُعِلتُ أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء (يعني نسوة النبي ﷺ) ، فنظرت فإذا أنا الزبير على فرسه يختلف (يجيء ويذهب) إلى بني قريظة ، مرتين أو ثلاثاً ، فلما رجعت قلت : يا أبت ، رأيتك تختلف ، قال : أَوَهل رأيتني يا بني ؟ قلت :

نعـم . . قال : كان رسـول الله ﷺ قال : « من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم ؟ ، فانطلقت ، فلما رجعت ، جمع لي رسول الله ﷺ أبويه ، فقال : « فداك أبي وأمي » (رواه الشيخان) ، فالرسول ﷺ بذلك « يعلي قدر رجل الاستخبارات » لأن الإنسان لا يُفدي إلا من يعظمه فيبذل له نفسه .

* وغير خاف أن نجاح رجال الاستخبارات في مهامهم يعود إلى « حسن اختيارهم » وتوفر صفات رجل الاستخبارات ومهاراته لديهم ، وذلك ما حرص عليه الرسول ﷺ ، فقد كان يختار لذلك من يتصف بالذكاء والقدرة على التصرف وعلى إصدار الحكم السليم ، وصفاء الرؤية ، والمرونة وسرعة التحول من حال إلى حال ، والثبات والاتزان في مواجهة أخطر المواقف وأعقدها ، وحب الاستطلاع والقدرة على كتمان المعلومات . . إلخ ومن الأمثلة التي تدل على حسن اختياره ﷺ لرجال استخباراته نذكر حُذيفة بن اليمان العبسي فقد كلفه عليه الصلاة والسلام بمهمة من أخطر مهام الاستخبارات وهي : « الدخول في معسكر الأعداء في أثناء المعركة » ، قال حذيفة : « دعاني رسول الله ﷺ فقال : يا حذيفة ، اذهب فادخل في القوم (أي قريش في غزوة الخندق) فانظر ماذا يصنعون » ، ولا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تأتينا ، قال : فذهبت ودخلت في القوم والريحُ وجنودُ الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقِرُّ لهم قدرا ولا نارا ولا بناء ، فقام أبوسفيان فقال : يا معشر قريش لينظر امرؤٌ مَنْ جَليسُه ؟ قال حذيفة : فضربتُ بيدي على يد الذي عن يميني فأخذت بيده فقلت : من أنت ؟ قال : معاوية بن أبي سفيان ، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي ، فقلت : من أنت ؟ قال : عمرو بن العاص ، فعلتُ ذلك خشية أن يُفْطَنَ بي فبَدَرْتُهم المسألة »(٨٧) .

هذه الواقعة تدل على ما كان يتمتع به حذيفة من سرعة البديهة وعدم الارتباك في الموقف الحرج المفاجىء والتصرف السريع فيه حتى لا ينكشف أمره وهو في صفوف الأعداء ، فإنه لما أمر أبو سفيان الناس أن يتحقق كل منهم

من هوية الـذي عن يمينـه والذي عن شماله ، « بادر » حذيفة فوراً بسؤال جارَيْه ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « فعلت ذلك خشية أن يفطن بي فبدرتهم المسألة » . ولو كان تأخر لحظة واحدة ، لبادره كل منهما بالسؤال ، وتعرض للارتباك الذي قد يكشف أمره ، ولضاع على المسلمين الهدف الذي بعثوه من أجله .

تعلم المسلمين لغة العدو :

ومن التدابير التي تتصل بأمن المسلمين أن يتعلموا لغة عدوهم ، وصدق من قال : « من عرف لغة قوم أَمِنَ شرهم » ، وقد عنى الرسول ﷺ بتعليم المسلمين لغة عدوهم ، ومن ذلك أنه أمر زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود ، قال زيد : « أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب اليهود بالسريانية وقال : إني والله ما آمن يهود على كتابي ، ثم قال زيد : فوالله ما مرَّ بي نصف شهر حتى تعلمته ، وجُدت فيه ، فكنت أكتب له إليهم ، وأقرأ كتبهم إليه »(٨٨) .

وينبهنا ذلك إلى بعض السلبيات التي تسود مجتمع العرب والمسلمين اليوم في مجال معـرفة العدو ، فالمعروف أن الإنسان إذا كره شيئاً تراه لا يريد أن يسمع عنه شيئاً أو يقع عليه نظره ، وكأنه يحاول أن يلغيه من حياته تماماً ، لكن هذا الاتجاه إذا جاز أحياناً لأسباب نفسية وعاطفية في علاقات الناس بالأشياء أو بعضهم ببعض ، فإنه لا يجوز مطلقاً في مجال الصراع مع الأعداء الذين أمرنا الله تعالى بأن يُعِدَّ لهم ما استطعنا من قوة ومرابطة ، وأن نقاتلهم إذا اعتدوا . . ويزيد من خطورة هذا الاتجاه السلبي في التفكير والتقدير أن عدونا « لا يتفق معنا فيه » ، بل هو يلقى بكل ثقله وبكل الوسائل الإيجابية لمعرفة أحوالنا ، ليس فقط الأحوال العسكرية أو الاقتصادية أو السياسية ، بل إنه يغوص في أعماقنا ليتعرف على كل ما يتعلق بحياتنا حتى الأمور الثقافية والأدبية والفنية ، لأن كل ذلك يفيده في صراعه معنا ، ويمكن لإدراك واقعاً

أن نتساءل : كم من أبناء أمتنا يعرف لغة العدو ، ويقرأ له ويقرأ عنه ، ويسعى إلى معرفة كل ما يتعلق بحياته ؟ .

الأمـــن الوقـــائي :

وعني الرسول ﷺ بحرمان العدو من كشف أسرار المسلمين والحصول على المعلومات عنهم وهو ما يعرف بالأمن الوقائي .

وقد أثبت تاريخ صدر الإسلام أن من أسباب انتصار المسلمين على أعدائهم الكثيرين أن أسرار النبي ﷺ وأسرار المسلمين كانت مصونة وبعيدة عن متناول الأعداء ، في الوقت الذي كان عليه الصلاة والسلام يطلع على نيات أعدائه العدوانية عن طريق عيونه وأرصاده قبل وقت مبكر ، فيعمل على إحباط ما يبيتونه للإسلام من غدر وخيانة وعدوان ، كذلك لم يستطع المشركون وأعداء الإسلام أن يباغتوا المسلمين في الزمان والمكان وأسلوبه القتال ، بينما استطاع الرسول ﷺ أن يباغت أعداءه في معظم غزواته وسراياه .

* ومن تدابير الأمن الوقائي التي اتخذها الرسول ﷺ ما يلي :

١ - كـــتمان الأســـــرار :

وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة نذكر منها ما يلي :

- « من يضمن لي ما بين لِحْيَيْه وفكَّيه (أي اللسان) أضمن له الجنة »(٨٩) .
- « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »(٩٠) .
- « رب كلمة من سخط الله يقولها المرأ لا يلقى لها بألا يهوى بها في النار سبعين خريفاً »(٩١) .
- « إذا حدَّث الرجل الحديث ثم التفت فهو أمانة »(٩٢) .
- « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »(٩٣) .

وكان المسلمون يعلمون أولادهم المحافظة على الأسرار ، ومن ذلك قول أنس بن مالك رضي الله عنه : أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان ، فسلم علينا ، فبعثني في حاجة ، فأبطأت على أمي ، فلما جئت قالت : ما حبَسَك ؟ فقلت : بعثني رسول الله ﷺ لحاجة ، قالت : ما حاجته ؟ قلت : إنها سر ، قالت : لا تخبرن بسر رسول الله ﷺ أحداً »[٩٤].

وقال أنس أيضاً : « أسرَّ إلى النبي ﷺ سراً فما أخبرتُ به أحداً بعده ، ولقد سألتني أم سُليم ، فما أخبرتها به »[٩٥].

٢ - كبح شهوة الكلام :

من الناس من تتحكم فيه شهوة الكلام ، فيستر جهله بادعاء العلم وخاصة « ببواطن الأمور » ، فيطلق لسانه فيما يعرف وفيما لا يعرف ، فلا يدع سراً إلا أذاعه ، ولا يتورع عن ترديد ما يلقى في أذنيه من أنباء هدفها إيقاع الضرر بالأمة كالشائعات وغيرها. . . وقد نهى الإسلام عن ذلك حيث قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾[٩٦].

وقال الرسول ﷺ :

- « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم »[٩٧].
- « كفى بالمرأ كذباً أن يحدث بكل ما سمع »[٩٨].
- « من حسن إسلام المرأ تركه ما لا يعنيه »[٩٩].

٣ - النهي عن الفضول :

والفضول من الأمور التي تتنافى مع مبدأ الأمن والمحافظة على الأسرار ، ومن الناس من تستبد به شهوة الفضول ويحفزه حب الاستطلاع على التدخل

فيما يعنيه ولا يعنيه من شئون الآخرين ، فتراه يمد بصره ويرهف سمعه ويدس أنفه في كل أمر من الأمور ، مما يؤدي إلى كشف الأسرار لذلك نهى الإسلام عنه كما يفهم من قول الله تعالى :

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[١٠٠] .
- ﴿ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[١٠١] .
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾[١٠٢] .

وقال الرسول ﷺ :

- « من حسن إسلام المرأ تركه ما لا يعنيه »[١٠٣] .
- « لو اطلع في بيتك أحد ولم تأذن له ، حَذَفْتَهُ بحصاة ففقأتَ عينه ، ما كان عليك من جناح »[١٠٤] . (وخذفته أي رميته) .
- « من اطلع في كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع في النار »[١٠٥] .

٤ - استخدام الرسائل المكتومة :

ولأول مرة في تاريخ الإسلام استخدم الرسول ﷺ أسلوب الرسائل المكتومة للمحافظة على سرية محتوياتها ، ففي شهر رجب من السنة الثانية للهجرة بعث عليه الصلاة والسلام عبد الله بن جحش في مهمة استطلاعية بعيدة المدى وسلمة كتاباً مغلقا يحتوي على التعليمات الخاصة بالمهمة ، وأمره ألا يفتح حتى يسير يومين ، فحقق بذلك أعلى درجات الأمن ، فالمهمة نفسها كانت مجهولة لقائد السرية ولأفرادها ، وكانت مجهولة -بالتالي- لجميع أهل المدينة مسلمين وغير مسلمين ، ومجهولة أيضاً لمن يمكن أن يكون في المدينة من عملاء قريش أو عيونها[١٠٦] .

٥ - مقاومة الجاسوسية :

ومن أهم إجراءات الأمن الوقائي مقاومة الجاسوسية لمنع العدو من الحصول على المعلومات ، عن إياس بن سَلَمة بن الأكوع عن أبيه قال : أتى النبيَّ ﷺ عَيْنٌ (جاسوس) من المشركين وهو في سفر ، فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انفتل ، فقال النبي ﷺ : « اطلبوه واقتلوه » فقتله (أو فقتلته) فنفَّله سَلَبَه »(١٠٧) .

وفي غزوة بني المصطلق أصاب رسول الله ﷺ عَيْناً للمشركين فسأله عنهم فلم يذكر من شأنهم شيئاً ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضرب عنقه »(١٠٨) .

٦ - خداع العدو :

قال ﷺ : « الحرب خدعة »(١٠٩) ، وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : « ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها(١١٠) وذلك ليجعل الأمر سراً ويخدع العدو ، ومن الأمثلة العملية في ذلك أنه ﷺ لما أراد تأديب بني لحيان ، أظهر أنه يريد الشام ، وتحرك فعلاً بقواته شمالاً ، فلما اطمأن إلى انتشار تحركه إلى الشمال عاد راجعاً باتجاه مكة مسرعاً في حركة حتى بلغ منازل بني لحيان ، لكنهم فروا إلى رءوس الجبال .

وحين أراد عليه الصلاة والسلام فتح مكة أجرى عملية خداعية لاخفاء اتجاهه الحقيقي بأن بعث أبا قتادة الحارث بن رِبْعِيّ رضي الله عنه في سرية إلى بطن إضم في أول رمضان سنة ٨هـ ، قال محمد بن عمر : « لما أراد رسول الله ﷺ التوجه إلى مكة بعث أبا قتادة الحارث بن ربعي رضي الله عنه في ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الأخبار »(١١١) .

خلاصـة البحـث :

من سنـة الرسول ﷺ في تأمين قاعدة الإسلام بالمدينة المنورة بعد الهجرة نستخلص ما يلي :

١ - على الأمة الإسلامية أن تضع موضوع الأمن وبناء قدراتها الدفاعية على قمـة أهـدافهـا الاستراتيجية وأن تحشد كل قواها في إطار من الوحدة والتكامل والتكافل ، وأن تتخذ أقصى درجات الأمن الوقائي لمنع العدو من كشف أسرارها وأن تجعل ذلك عنصراً من عناصر التربية لأبنائها .

٢ - رسم الإسـلام الـطريق لبناء الفرد حتى يكون إنساناً صحيح الجسم والعقل والنفس وليجعل منه عنصراً إيجابياً صالحاً في بناء أمته وفي الدفاع عنها ، كما رسم الطريق الصحيح لبناء المجتمع الإنساني الفاضل الذي يهيىء للفرد المناخ الصالح للتنشئة السليمة والتربية القويمة كما يهيىء له الفرص التي تتيح له إظهار طاقاته المدخرة فيه .

٣ - إن استقرار الجبهة الداخلية ووحدتها في الهدف والصف ، وقوة قاعدتها الاقتصادية بالإضافة إلى دراسة العدو واستطلاع أحواله والتصدي للقوى المضادة المستترة داخل البلاد وخارجها من أهـم أسباب النجاح في إدارة الصراع .

الهوامـــش

(١) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الأول ص ٤٦٨ - ومعنى أرسالاً : أي جماعة في إثر جماعة .

(٢) الآية الكريمة ٨ من سورة الحشـر .

(٣) الآية الكريمة ٩ من سورة التوبة .

(٤) الحديث الشريف : رواه الشيخان .

(٥) الحديث الشريف : رواه الشيخان .

(٦) الحديث الشريف : رواه الشيخان .

(٧) الحديث الشريف : رواه الشيخان (والآجر : هو الطوب المشوي . . أسنان الإبل : أي إبل الديات واختلافها في العمد والخطأ وشبه العمد . . حرم : أي محرمة . . عير : جبل بالمدينة . . من أحدث فيها حدثاً : من ابتدع بدعة أو ظلماً . . صرفا . . فرضا . . ولا عدلاً : نافلة ، أو بالعكس ، أو التوبة والفدية ، أو غير ذلك . . فيه : في المكتوب في الصحيفة . . ذمة المسلمين واحدة : أي أمانهم صحيح ، فإذا أمَّن الكافرَ واحد منهم حرم على غيره التعرض له . . يسعى بها : أي يتولاها . . أدناهم : من المرأة والعبد ونحوهما . . فمن أخفر مسلماً : نقص عهده . . من والى قوماً : (تخذهم أولياء) محمد فؤاد عبد الباقي : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١-٣ ص ٣١٩ حديث رقم ٨٦٨ .

(٨) الحديث الشريف : رواه الشيخان (وترتع : أي ترعى . ما ذعرتها : أي ما أفزعتها ، وكنى بذلك عن عدم صيدها . ما بين لا بيتها : اللابة : الحَرَّة وهي الأرض ذات الحجارة السود ، والمدينة بين لا بيتين شرقية وغربية ، ولها لابتان أيضاً من الجانبين الآخرين إلا أنهما يرجعان إلى الأولين لاتصالهما بهما ، فجميع دورها كلها داخل ذلك . . اللؤلؤ والمرجان ص٣١٩) .

(٩) الحديث الشريف : رواه الشيخان (ولا يكيد أهل المدينة أحد : أي لا يفعل بهم كيدا من مكر وحرب وغير ذلك من وجوه الضرر بغير حق . . انماع : ذاب - اللؤلؤ والمرجان : ص٣٢١ .

(١٠) الحديث الشريف : رواه البخاري .

(١١) الحديث الشريف : رواه الطبراني والبزار عن أبي الدرداء) .

(١٢) الحديث الشريف : رواه الشيخان .

(١٣) الحديث الشريف : رواه مسلم .

(١٤) الحديث الشريف : رواه الشيخان .

(١٥) كنز العمل جـ ٢ ص ١١٨ .

(١٦) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الثاني ص٢٣٩ + عز الدين بن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ٧ ص١١٠ - ١١١ ، (ورفيدة هي رفيدة الأنصارية وقيل الأسلمية ، ومن به ضيعة : أي جائع يحتاج إلى الطعام : والضائع هو الجائع) .

(١٧) الحديث الشريف : رواه الشيخان .

(١٨) الحديث الشريف : رواه الشيخان .

(١٩) الحديث الشريف : رواه الشيخان .

(٢٠) الحديث الشريف : رواه أحمد .

(٢١) الحديث الشريف : رواه ابن ماجة .

(٢٢) الحديث الشريف : رواه الشيخان .

(٢٣) الآيات الكريمة ١٥-١٩ من سورة الذاريات .

(٢٤) الآية الكريمة ٢٩ من سورة الفتح (والمعنى أن الصحابة بدأوا قلة ضعافا ثم انتهوا إلى كثرة قوية مباركة) .

(٢٥) الآية الكريمة ٩ من سورة الحشر .

(٢٦) السيوطي : أسباب النزول ص ٧٢٨ .

(٢٧) الآية الكريمة ٦٣ من سورة الأنفال .

(٢٨) الآية الكريمة ١٠٣ من سورة آل عمران .

(٢٩) الآية الكريمة ١١١ من سورة التوبة .

(٣٠) الآيتان الكريمتان ٢٣ - ٢٤ من سورة الأحزاب .

(٣١) أخرجه مسلم والترمذي - أسباب النزول للسيوطي ص٥٥٦ - ٥٥٧ .

(٣٢) الآية الكريمة ٢٠٧ من سورة البقرة .

(٣٣) السيوطي : أسباب النزول ص ٨٨ - ٨٩ .

(٣٤) الآيتان الكريمتان ٩١ - ٩٢ من سورة التوبة .

(٣٥) السيوطي : أسباب النزل ص ٢٧٧ .

(٣٦) الآية الكريمة ٢٢ من سورة المجادلة .

(٣٧) السيوطي : أسباب النزول ص ٧٢٦ .

(٣٨) الحديث الشريف : رواه النسائي .

(٣٩) الحديث الشريف : رواه الترمذي بسند حسن عن سعد .

(٤٠) الحديث الشريف : رواه مسلم والترمذي .

(٤١) الآية الكريمة : ٣٨ من سورة الشورى .

(٤٢) الآية الكريمة : ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٤٣) الحديث الشريف : رواه أحمد والشافعي .

(٤٤) الحديث الشريف : رواه ابن ماجه وأبو داود والترمذي والبيهقي .

(٤٥) الحديث الشريف : رواه ابن ماجة .
(٤٦) الحديث الشريف : عن أبي موسى رضي الله عنه .
(٤٧) الآية الكريمة : ٣٠ من سورة الحج .
(٤٨) الحديث الشريف : رواه الطبراني عن أنس .
(٤٩) الحديث الشريف : رواه ابن مردويه .
(٥٠) ابن هشام : السيرة النبوية - القسم الأول ص ٦٢٠ .
(٥١) الحديث الشريف : رواه أحمد بسنده .
(٥٢) الآية الكريمة : ١٥٩ من سورة آل عمران .
(٥٣) ابن هشام : السيرة النبوية . القسم الثاني ص٦٣ + سبل الهدى والرشاد جـ٤ ص٢٧٧ .
(٥٤) الآيتان الكريمتان ٣٤ - ٣٥ من سورة التوبة .
(٥٥) الآية الكريمة : ٧ من سورة الكهف .
(٥٦) الآية الكريمة : ١٠٥ من سورة التوبة .
(٥٧) الحديث الشريف : رواه الطبراني .
(٥٨) الحديث الشريف : رواه البيهقي وأبو يعلي وغيرهما .
(٥٩) الآيتان الكريمتان : ٢٦ - ٢٧ من سورة الإسراء .
(٦٠) الآية الكريمة : ٣١ من سورة الأعراف .
(٦١) الحديث الشريف : رواه البخاري عن أبي هريرة .
(٦٢) الحديث الشريف : رواه مسلم عن أبي هريرة .
(٦٣) الآية الكريمة : ٦٠ من سورة الأنفال .
(٦٤) الآية الكريمة : ٤١ من سورة التوبة .
(٦٥) الآية الكريمة : ٧٢ من سورة الأنفال .
(٦٦) الحديث الشريف : رواه أحمد والنسائي .
(٦٧) الحديث الشريف : رواه البخاري .
(٦٨) الحديث الشريف : رواه الحاكم واللفظ له وأحمد والطبراني عن معقل بن يسار رضي الله عنه .
(٦٩) الحديث الشريف : رواه ابن ماجة والحاكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٧٠) الحديث الشريف : رواه أحمد (والعرصة ساحة الدار) .
(٧١) الحديث الشريف : رواه الترمذي والحاكم .
(٧٢) الآيتان الكريمتان : ٣٧ - ٣٨ من سورة النور .
(٧٣) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الأول ص ٥٠١ - ٥٠٤ (ملخصا) .
(٧٤) الحديث الشريف : رواه مسلم .
(٧٥) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الأول ص٥٥٥ - ٥٥٧ (ملخصاً) والآية الكريمة ١٠٠ من سورة آل عمران .

(٧٦) سبل الهدى والرشاد : حـ ٤ ص ٤٩٥ .
(٧٧) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الثاني ص ٥٢٩ - ٥٣٠ (ملخصا) .
(٧٨) الآيتان الكريمتان : ١٠٧ - ١٠٨ من سورة التوبة .
(٧٩) عز الدين بن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ١ ص٤٦٨ .
(٨٠) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد : جـ ٤ ص ٢٧٢ .
(٨١) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الثاني ص ٣٠٩ .
(٨٢) ابن هشام : نفسه ص ٣١٢ .
(٨٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥ .
(٨٤) سبل الهدى والرشاد جـ٤ ص٥١٤ .
(٨٥) ابن هشام : القسم الأول ص ١٠٢ .
(٨٦) ابن هشام : القسم الثاني ص ٤٤٠ - ٤٤١ .
(٨٧) سبل الهدى والرشاد : حـ٤ ص + ٥٤٨ + الحلبي : السيرة الحلبية حـ ، ص ٦٥٢ .
(٨٨) الحديث : رواه البخاري .
(٨٩) الحديث : متفق عليه .
(٩٠) الحديث : متفق عليه .
(٩١) الحديث : رواه مسلم .
(٩٢) الحديث : رواه أحمد وأبو داود والترمذي .
(٩٣) الحديث : رواه البخاري ومسلم .
(٩٤) الحديث : رواه مسلم .
(٩٥) الحديث : رواه البخاري ومسلم .
(٩٦) الآية الكريمة : رقم ٦ من سورة لقمان .
(٩٧) الحديث : رواه أحمد والترمذي .
(٩٨) الحديث : رواه مسـلم .
(٩٩) الحديث : رواه ابن ماجة والترمذي .
(١٠٠) الآية الكريمة : ١٠١ من سورة المائدة .
(١٠١) الآية الكريمة : ٤٧ من سورة هــود .
(١٠٢) الآية الكريمة : ١٢ من سورة الحجرات .
(١٠٣) الحديث : رواه ابن ماجة والترمذي .
(١٠٤) الحديث : رواه الشـيخان .
(١٠٥) الحديث : رواه الطبراني في الكبير ورمز له بالحسن .
(١٠٦) راجع تفاصيل هذه السرية في كتابنا : غزوات الرسول ﷺ شرف الآباء وهداية الأبناء ص٥١-٦٣ .

(١٠٧) الحديث : رواه البخـاري .
(١٠٨) سبل الهدى والرشاد جـ٤ ص٤٨٧ + السيرة الحلبية جـ٢ ص٥٨٤ .
(١٠٩) الحديث : رواه الخمســة .
(١١٠) الحديث : رواه البخاري .
(١١١) سبل الهدى والرشاد جـ٦ ص٢٩٤ .

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم .
* ابن هشـام : السـيرة النبوية - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر- ط. ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م القسمان الأول والثاني .
* السيوطي : أسباب النزول - ذيل تفسير الجلالين - مكتبة محمد هاشم الكتبي دمشق .
* البلاذري : فتوح البلدان - مكتبة الهلال - بيروت ط. ١ - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
* عز الدين بن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة - كتاب الشعب - القاهرة ١٩٧٠م .
* علي بن برهان الدين الحلبي : إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون - مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر - ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .
* محمد بن يوسف الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م .
* محمـد جمال الـدين محفوظ : غزوات الرسول ﷺ شرف الآباء وهداية الأبناء - دار الاعتصام - القاهرة ١٩٩٠م .